عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد

كم كانت الكتابة صعبة في هذا الفصل، أن نتحدث عن الفاروق وسيف الله المسلول ونحاول كشف تلك العلاقة المتوترة التي كانت بين الطرفين، وهما من هما، لهو أمر من الصعاب.

الفاروق عمر بن الخطاب.. ثاني الخلفاء الراشدين وأحد المبشرين العشرة بالجنة، وأول من لُقِّب بأمير المؤمنين وهو الإنسي الوحيد الذي خشى منه إبليس، أسلم قبل الهجرة وهاجر مجاهرًا في الصباح والشمس تتوسط السماء.

أما سيف الله المسلول خالد بن الوليد، فقد أسلم في العام الثامن من الهجرة بعد صلح الحديبية بصحبة صديقه عمرو بن العاص، يعد أحد قادة الجيوش القلائل في التاريخ الذين لم يهزموا في معركة طوال حياتهم، فهو لم يهزم في أكثر من مئة معركة أمام قوات متفوقةً عدديًّا من الإمبراطورية الرومية البيزنطية والإمبراطورية الساسانية الفارسية وحلفائهم، بالإضافة إلى العديد من القبائل العربية الأخرى، حتى المعارك التي خاضها ضد المسلمين قبل إسلامه لم يخسرها، اشتهر خالد بانتصاراته الحاسمة في معارك اليمامة، وأُليس والفراض، وتكتيكاته التي استخدمها في معركتي الولجة واليرموك

عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد مرتين، في المرة الأولى عن القيادة العامة وإمارة الأمراء بالشام، وكانت هذه المرة في السنة الثالثة عشرة من الهجرة، غداة تولي عمر الخلافة بعد وفاة أبي بكر الصديق مباشرةً، وسبب هذا العزل اختلاف منهج الصديق عن الفاروق في التعامل مع الأمراء والولاة؛ فالصديق كان من سنته مع عماله وأمراء عمله، أن يترك لهم حرية التصرف كاملةً في حدود النظام العام للدولة، مشروطًا ذلك بتحقيق العدل كاملًا بين الأفراد والجماعات، ثم

لا يبالي أن يكون لواء العدل منشورًا بيده أو بيد عماله وولاته، فللوالي حقٌ يستمده من سلطان الخلافة في تدبير أمر ولايته دون رجوع في الجزئيات إلى أمر الخليفة، وكان أبو بكر لا يرى أن يكسر على الولاة سلطانهم في مال أو غيره ما دام العدل قائمًا في رعيتهم، وكان الفاروق قد أشار على الصديق بأن يكتب لخالد أن لا يعطي شاة ولا بعيرا إلا بأمره.. فكتب أبو بكر إلى خالد بذلك فكتب إليه خالد قائلًا: "إما أن تدعني وعملي وإلا فشأنك وعملك.. فأشار عليه عمر بعزله، ولكن الصديق أقر خالد على عمله.. ولما تولى الفاروق الخلافة كان يرى أنه يجب على الخليفة أن يحدد لأمرائه وولاته طريقة سيرهم في حكم ولاياتهم، ويحتم عليهم أن يردوا إليه ما يحدث حتى يكون هو الذي ينظر فيه ثم يأمرهم بأمره وعليهم التنفيذ؛ لأنه يرى أن الخليفة مسئولٌ عن عمله وعن عمل ولاته في الرعية، مسؤوليةً لا يرفعها عنه أنه اجتهد في اختيار الوالي، فلمَّا تولَّى الخلافة، خطب الناس فقال: "إن الله ابتلاكم بي وابتلاني بكم، وأبقاني بعد صاحبي، فوالله لا يحضرني شيء من أمركم فيليه أحد دوني ولا يتغيب عني فآلوا فيه عن الجزء والأمانة، ولئن أحسن الولاة لأحسنن إليهم ولئن أساؤوا لأنكلنَّ بهم".. فرضي بعضهم وأبى آخرون، وكان ممن أبى عليه ذلك خالد بن الوليد، فعزل عمر خالد من وجهة سياسة الحكم، وحق الحاكم في تصريف شؤون الدولة ومسؤوليته عنها.

استقبل خالد هذا العزل دون اعتراض، وظل سيف الله تحت قيادة أبي عبيدة، حتى فتح الله عليه قنسرين، فولاه أبو عبيدة عليها، وكتب إلى أمير المؤمنين يصف له الفتح وبلاء خالد فيه فقال عمر قولته المشهورة: "أمر خالد نفسه، رحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني"، ويعني عمر بمقولته هذه أن خالد فيما أتى به من أفانين الشجاعة وضروب البطولة، قد وضع نفسه في موضعها الذي

آلفته في المواقع الخطيرة من الإقدام والمخاطرة، وكأنما يعني عمر بذلك، أن استمساك أبي بكر بخالد وعدم موافقته على عزله، برغم الإلحاح عليه، إنما كان عن يقين في مقدرة خالد وعبقريته العسكرية التي لا يغني غناءه فيها، إلا آحاد الأفذاذ من أبطال الأمم. أحسن أبو عبيدة بن الجراح معاملة خالد، فلازم صحبته وأخذ بمشورته واستعان بالله ثم به في المعارك الكبيرة، وقد صفت نفس خالد لأخيه أبي عبيدة، وظل تحت إمرته أربع سنوات لم يخالفه فيها.

لم يكن عزل خالد في هذه المرة الأولى عن شك من الخليفة ولا عن ضغائن جاهلية ولا عن اتهامه بانتهاك حرمات الشريعة، ولا عن طعن في تقوى وعدل خالد.. ولكن كان هناك منهجان لرجلين عظيمين وشخصيتين قويتين، كان يرى كل منهما ضرورة تطبيق منهجه، فإذا كان لا بد لأحدهما أن يتنحى، فلا بد أن يتنحى أمير الجيوش لأمير المؤمنين من غير عناد ولا حقد وضغينة.

إن من توفيق الله تعالى للفاروق، تولية أبي عبيدة لجيوش الشام.. فذلك الميدان بعد معركة اليرموك كان يحتاج إلى المسالمة واستلال الأحقاد وتضميد الجراح وتقريب القلوب، فأبو عبيدة يسرع إلى المسالمة إذا فتحت أبوابها ولا يتباطأ عن الحرب إذا وجبت عليه أسبابها، فإن كانت بالمسالمة جدوى، فذاك، وإلا فالاستعداد للقتال على أهبته، وقد كان أبناء الأمصار الشامية يتسامعون بحلم أبي عبيدة، فيقبلون على التسليم إليه ويؤثرون خطابهم له على غيره، فولاية أبي عبيدة سنة عمرية، وكانت ولايته للشام في تلك المرحلة أصلح الولايات لها.. أما خالد فقد عرف عنه بعض القسوة في تعاملاته، ولعل ما فعله مع هرمز وقارن ومالك بن قيس وسجاح وغيرهم، ما يؤكد ذلك، وإن كانت القسوة واجبة مع بعض الأشخاص في الحروب، فمثلًا عندما يحارب جيش مسيلمة الكذاب، بلين ورفق؟

جاء العزل الثاني لخالد من قبل الفاروق في السنة السابعة عشرة، فقد بلغ أمير المؤمنين أن خالد وعياض بن غنم أدربا في بلاد الروم وتوغلا في دروبهما ورجعا بغنائم عظيمة، وأن رجالًا من أهل الآفاق قصدوا خالد لمعروفه، منهم رجل يدعى الأشعث بن قيس الكندي.. فأعطاه خالد عشرة آلاف.. وكان عمر لا يخفى عليه شيء في عمله، فبلغه في المدينة خبر جائزة خالد للأشعث، فكتب عمر إلى أبي عبيدة أن يستقدم خالد وهو مقيد بعمامته، حتى يعلم آجاز الأشعث من ماله أم من مال المسلمين، فإن زعم أنها من مال المسلمين، فتلك خيانة للأمانة، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف، وفي كلتا الحالتين يعزل خالد من قيادته للجيوش.

تحير أبو عبيدة فلم يستطع تنفيذ أمر الفاروق في سيف الله المسلول، فترك تنفيذ تلك المهمة لبلال بن رباح رسول الخليفة بالكتاب، أرسل أبو عبيدة يستدعي خالد من قنسرين، ثم جمع الناس وسأل بلال خالد عما إذا كانت جائزته للأشعث من ماله أم من مال المسلمين؟.. فأجاب خالد أنها من ماله الخاص، فأعلنت براءته، ليفاجئ أبو عبيدة خالد بأن الخليفة قد عزله، وأنه مأمورٌ بالتوجه للمدينة المنورة على الفور.

ذهب خالد للمدينة للقاء عمر، محتجًا على ما اعتبره ظلمًا، إلا أن عمر أصر على قراره، كثر اللغط في الأمصار حول عزل عمر لخالد، فأذاع عمر في الأمصار أنه لم يعزل خالد عن سخطٍ ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به فخاف أن يوكلوا إليه ويبتلوا به، فأحب أن يعلموا أن الله هو الصانع وألا يكونوا بعرض فتنة.. وكانت تلك هي نهاية مسيرة خالد العسكرية.

اعتزل خالد الحياة العسكرية حتى توفاه الله في العام الحادي والعشرين من الهجرة بحمص، وقيل إن الفاروق قد حضر جنازته، وبكى عليه كثيرًا.

كان هذا هو ما حدث بين الرجلين العظيمين.. هناك روايات تسرد أن الخلاف أكبر مما قيل؛ لأن خالد قد كسر ساق عمر قديمًا وهم صغار، وكان خالد ابن خال عمر فلم ينسها له عمر، وهناك من يقول إن عمر قد حاول عزل خالد أكثر من مرة في عهد أبي بكر الصديق بحجة قسوته وكثرة القتلى في معاركه، ولكن "الصديق" لم يوافق على ذلك، فعزله عمر عندما تولَّى الخلافة.. وهناك من يقول إن خالد كان متفوقًا على عمر أيام الجاهلية، فعندما أتى الإسلام وأسلم عمر مبكرًا، أصبح متفوقًا على خالد والذي أسلم متأخرًا،

كلها مجرد روايات وأقاويل، فقط نقول كلمةً أخيرة:

هذان رجلان عظيمان.. وصحابيان جليلان.. ومهما كان ما حدث بينهما، فهما في النهاية بشر.. أعلى منَّا بمراحل عند الله، عز وجل.. ولكنهما بشر بكل ما في النفس البشرية من طباع.